المحاضرة الأولى فصل٢

الخطابة الإسلامية

د. تومان غازي الخفاجي

مدخل:

إذا كانت الخطابة قد وَجدت في العصر الجاهلي حياةً تناسبُها؛ لأنّها وجدت العربيَّ يحيا حياة فروسية وصراع، فإنّها في العصر الإسلامي وجدت لها حياةً أنسب، ذلك أنّ العرب كوّنوا لهم فيها دولة تستظلُّ بظلّ الدين، وتجد في الإيثار والتقوى والإيمان روحا وقوّة وتثبيتا.

وكانت الخطابة في العصر الإسلامي سلاحا لإعلان العقيدة الجديدة والدعوة إليها، وكان هذا سببا رئيسا في ازدهارها وتنوّع أفكارها، وقد عمّق الإسلام قيمتها وجعلها من الأركان الأساسية في صلاة الجمعة والعيدين والحج، فضلا عن المناسبات الأخرى نحو إعلان الحرب والحثّ على الجهاد وإبداء الرأي والوعظ الديني والدعوة إلى الإسلام حتى قويت الخطابة وكثُر الخطباء وأصبح المحيط الإسلامي كلّه مدرسة خطابية، لا يمكن الاستغناء عنها في كلّ مناسبة يدعو فيها إلى الإسلام.

أولا: تعريف الخطابة: هي القدرة على صياغة الكلام بطريقةٍ يؤثّر فيها الخطيب على آراء المخاطبين فيُغير من مواقفهم اتجاه موضوع ما، بمعنى أنّ الخطابة تؤدي وظيفتين هما: الاقناع والامتاع، وهي إحدى الفنون النّثرية المستعملة منذ أيّام الجاهليّة بشكل كبير، ولكن مع ظهور الإسلام ازدادت بلاغتها وحكمتها.

ثانيا: الخصائص الفنية في الخطابة الإسلامية:

١- توظيف النص القرآني: إذ استعمل الخطباء المسلمون ألفاظَ القرآن الكريم واستدلّوا بآياته، وقلّلوا من جودة الخطبة الخالية من القرآن الكريم وقيمتها، فأطلقوا على الخطبة الخالية من القرآن اسم (**الشّوهاء**)، والدّليل على ذلك قول بعضهم عن خطبة زياد: (ظننتُ أنّه لم يقصِّرْ فيها عن غاية ولم يدعْ لطاعنٍ علّة، فمررتُ بعض المجالس فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبتهِ شيءٌ من القرآن).

٢- البدء بالبسملة وحمد الله والصّلاة على رسوله، ثمّ كلمة (أمّا بعد)، ثمّ انتقال الخطيب إلى الموضوع الرئيس من الخطبة، وإنهاء خطبته بالسلام، ونادراً ما نجد خطبةً تخلو من هذه البداية، إذ أنّ الخطبة التي تخلو من هذه البداية تُسمّى البتراء.

٣- **التقليل من استعمال السّجع** الذي كان يبرز بشكل كبير في خُطب الجاهليّة، ولاسيما (سجع الكهّان) الذي كان يدّعي صاحبه التنبّؤ بالمستقبل ومعرفة الغيب، باستعمال ألفاظ غامضة وغريبة وذات جرس إيحائيّ، والجدير ذكره أنّ الرسول (ص) نهى عن استعمال هذا النوع من السّجع، ولكنّ هذا لا يعني أنّ خُطب العصر الإسلاميّ خلت من السجع، فقد أُستعمل السجع بشكلٍ واضح ولكنّه سجعٌ يتبع المعنى وليس زُخرفا لفظيا، وهو ما اصطلحنا عليه بـ(الإيقاع السجعي) وهو موسيقى الكلام النثري المتكوّن من: إيقاع عدد الكلمات في القرينة النثرية ونغم الفواصل.

٤- **وحدة الموضوع والفكر:** كانت الخطب تفتقرُ إلى هذه الخاصّيّة قبل الدعوة الإسلامية، وقد جاءت وحدة الموضوع مرافقة لوضوح الأفكار وجزالة الألفاظ وسلاستها وفصاحتها، واتّسمت الفقرات بقصرها وتناسق فواصلها.

٥- **اندثار المنافرات والمفاخرات القديمة:** لأنّ الإسلام وحّد مواقف القبائل بالدعوة إلى الوحدة، فأصبح المؤمنون إخوة، ولا تفاضل لأحد على الاخر إلاّ بالتقوى.

٦- **الإيجاز مع البلاغة**؛ حثّ الرسول عليه الصّلاة والسّلام وعلى آله على تقصير خطبة الجمعة، وحثّ أبو بكر أحد قادته على تقصير خطبه لجنوده حتى لا ينسوا كلامه ومواعظه لهم، ولكنّ هذا لا يعني خلوّ العصر الإسلاميّ من الخطب الطويلة ولاسيما في الأمور السياسية، واعتمد طول الخطبة أو قصرها على زمان الخطبة وموضوعها.

٧- **إيراد بعض الأمثال والحكم وأبيات الشّعر**: وذلك جرياً على فطرتهم وطَبائعهم في تَنسيق الكلام وتوظيف الثقافة السائدة.

ومن أمثلة ذلك خطبة الإمام علي(ع) المذكورة في نهج البلاغة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ وإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ والْحَدَثِ الْجَلِيلِ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ (صلى الله عليه وآله).

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ وتُعْقِبُ النَّدَامَةَ، وقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ، فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ والْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ فَكُنْتُ أَنَا وإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلا ضُحَى الْغَدِ

خطبة النبي(ص) في الأنصار بعد فتح مكة، والانتصار في غزوة حُنين، وقد وزّع النبي(ص) الغنائم على كبار شيوخ قريش، ومنهم أبو سفيان، فقالت الأنصار: هل عرف أبو سفيان الإسلام إلَّا بعد أن قاتلته سيوف الأنصار؟ وهل دخل عيينة ابن حصن في الإسلام إلَّا بعد أن اجتالته إليه سيوف الأنصار؟ ما بال هؤلاء الذين أدخلهم الأنصار الإسلام يُعطَونَ من الغنائم بالمئات ويُترك الأنصار؟ يغفر الله لرسول الله ووجدوا في أنفسهم عليه كيف يتركهم من الغنائم ويعطي غيرهم؟.

وتبلغ الكلمة رسول الله صلى (ص) فيطلب من سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار فجمعهم في قبة ليس فيها غيرهم ثم وقف فيهم خطيباً فقال:

" يا معشر الأنصار ما مقالةٌ بلغتني عنكم أوجدتم عليَّ في لُعاعة من الدنيا أعطيتها أقواماً أتألفهم بها إلى الإسلام، ووكلتكم إلى إسلامكم؟! يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالةً فأغناكم الله بي؟ ألم أجدكم متفرقين فألّف اللهُ بين قلوبكم بي؟ فقالوا جميعاً بلسان واحد لله ولرسوله المنُّ والفضل.

ثم قال يا معشر الأنصار ألا تجيبون؟! فقالوا بمَ نُجيب يا رسول الله، للهِ ولرسولهِ المنُّ والفضل، فقال (ص): أَمَا إنَّكم لو شِئتم لقلتم فلَصَدَقتُم ولَصدِّقتُم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، وطريدا فآويناك، ومخذولا فنصرناك وعائلا فآسيناك.

يا معشر الأنصار! ألا يُرضيكم أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، أما واللهِ لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناسُ فجًّا وسلكَ الأنصار فجّا لسلكتُ فج الأنصار.

اللهم ارحم: (عبارة افتتاحية)

الأنصار ١

وأبناء الأنصار.....٢

وأبناء أبناء الأنصار.....٣

فبكوا وقالوا: رضينا برسول الله حظا وقِسْمًا.